# الفصل الثالث
# من أســـرار حرف الظرفية

## حقيقة الظرفية ومجازها

أستهلُّ الحديث عن هذا الحرف الذي توسَّع العرب فيه توسُّعًا أكسبه مرونة هائلة ، حتى أصبح أداة طيِّعة في التعبير عن العديد من المعاني المختلفة المخبوءة في النفس ، بما قاله الإمام الرَّضيُّ: «و(في) للظرفية إمَّا تحقيقًا نحو: زيد في الدار ، أو تقديرًا نحو: نظرت في الكتاب ، وتفكَّر في العلم ، وأنا في حاجتك؛ لكون الكتاب والعلم والحاجة شاغلةً للنظر والتفكُّر والمتكلم ، مشتملة عليها اشتمال الظرف على المظروف ، فكأنَّها محيطة بها من جوانبها ، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام: (في النفس المؤمنة مائة من الإبل) ، أي: في قتلها ، فالسبب الذي هو القتل متضمِّن للدية تضمُّن الظرف للمظروف ، وهذه هي التي يقال إنَّها للسببية [1].

رحم الله الرَّضيَّ؛ أدلى فأروى ، ورمى فأصاب ، حيث ردَّ كل ما قيل عن تناوب هذا الحرف مع غيره ، وأرجعه إلى معنى الظرفية في صورتيها؛ الحقيقية والمجازية.

ولعلك حين تقارن بين «سعيت لحاجتك» و«سعيت في حاجتك» ، يلوح لك الفرق واضحًا كما أشار إليه الرَّضيُّ. فالأول أظهر مجرد الاهتمام بالسعي لإنجاز هذه الحاجة ، والثاني تفرَّغ لها تفرُّغًا كاملاً ، وطرح كل ما سواها ، وانشغل بها انشغالاً ملك عليه فكره ووجدانه ، فهو يعيش فيها ويتحرك من خلالها ، وهو ما تجده في قول ثعلبة بن صعير:

هَلْ عِنْدَ عَمْرَةَ مِنْ بَنَاتِ مُسَافِرٍ  فِي حَـــاجَةٍ مُتَرَوِّحٍ أَوْ بَاكِرِ

فحاجته التي سافر من أجلها هي التي شغلته عن أهله وأحبائه ،

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٠٤.

وتحمّل في سبيلها عناء السفر ومشاقّه ، وهو غارق في هذه الحاجة بفكره ووجدانه ، كما هو فيها بحركته وتقلُّباته.

وقوله عليه السلام «في النفس المؤمنة مائة من الإبل» ، دلَّ حرف الظرفية فيه على تعظيم النفس المؤمنة وحُرْمتها ، وتفظيع الإقدام على قتلها ، حتى إنَّ هذه الدية العظيمة تتوارى فيها ، ويحتويها إثم القتل ويشتملها ، ولعل هذا هو الذي جعله – عليه السلام – لا يصرِّح بالقتل ، لتظل النفس بجلالها ، تشيع من حولها هالات التعظيم ، منذرة متوعدة.

وحرف الظرفية في حديث الرسول أدى مؤداه في قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٧٩) ، وهو في الآية وجهٌ من وجوه الإعجاز البلاغي. ذلك أنَّ الله أراد أنْ يُعظِّم من شأن القصاص في بيئة تستهين بالأنفس ، وتبني أمجادها وفخارها على كثرة ما تُزهق من أرواح ، والقصاص رادع يمنع من الإقدام على القتل ، فهو سبب من أسباب الحياة ، وفي دخول حرف الظرفية ما يجعله سياجًا للحياة وحصنًا يحميها ويصونها ، ويشتملها الوعاء للموعى به ، ولا يضير بعد هذا أنْ يكون ذلك مجازًا بالاستعارة يشبه فيه القصاص بالظرف ، والحياة بالمظروف ، مادمنا قد أدركنا أسرار هذا التجوُّز ومراميه .

وعلى هذا جاء قوله تعالى على لسان الملأ من قوم نوح في خطاب نبيهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(الأعراف: ٦٠) ، مبالغةً في كثرة ضلاله ، وقصدًا إلى تمكُّنه فيه ، وإغراقه في الالتصاق به ، وجاء جوابه لهم بالباء عدولاً من حرف الوعاء ، مبالغةً في نفي اقترابه من

الضلال وتلبُّسه به ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(الأعراف: ٦١) ، ولم يقل: «لست في ضلالة»؛ لأنه حينئذ يكون نفيًا لكثرة الضلال والإغراق فيه ، لا نفيًا لتلبُّسه به ، وهو ما أكده بإفراد الضلالة ، واطرادًا لهذا الغرض ودليلاً على القصد إليه جاء خطاب الملأ من قوم هود لنبيهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ (الأعراف: ٦٦) ، وجاء ردُّه عليهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ﴾ (الأعراف: ٦٧) ، وهذا من دقائق لسان العرب وأسرار الإعجاز في الكتاب العزيز.

وإلى هذه النكتة من أسرار التجوُّز بحرف الظرفية أشار العز بن عبدالسلام: «أنْ يُجعل المعنى محلاً للجرم ، وهو مجاز تشبيه أيضًا ، يُتجوَّز به عن كثرة ما جُعل ظرفًا مجازيًّا ، لمَّا كان الحاوي أعظم من المحوي شُبِّه به ما توالى أو كثر من المعاني ، وله أمثلة ، أحدها قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ ، الثاني قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ »[1].

ولا تعارض بين هذه النكتة وبين ما صرَّح به الزمخشريُّ ، من قوله: «وجُعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز ، أراد أنَّه متمكِّن فيها غير منفك عنها»[2]؛ لأنَّ الإيماء بالكثرة ، والدلالة على التمكُّن ، كلاهما ممَّا يشي به حرف الوعاء ، ولا يخفى عليك أنَّ كلام الزمخشريِّ في هذا الموضع ذاهبٌ إلى التجوُّز في مدخول الحرف ، بخلاف «العز»، فإنَّه يذهب إلى التجوُّز في الحرف ذاته. وهو ما يفيده كلام

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز ٢٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٨٧.

الكشاف في موضع آخر [1].

ومن بليغ ما جاء حرف الوعاء فيه دالاً على التمكُّن والرسوخ ، وعدَّه بعض المفسرين حرفًا زائدًا ، قوله تعالى في دعاء المؤمن: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ (الأحقاف: ١٥) ، حيث إنَّ «أصلح» فعل يتعدَّى بنفسه ، كما في قوله تعالى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ (الأنبياء: ٩٠) ، وزيادة حرف الظرفية للدلالة على رجائه في أنْ يكون الإصلاح عميق الأثر في نفوس الأبناء ، متمكنًا منهم ، يجري في عروقهم ودمائهم ، وليس صلاح الظواهر ، الذي لا يتجاوز الألسنة ، ولا ينفذ إلى الأعماق.

أترى المفسرين حين جعلوه من تنزيل الفعل اللازم منزلة المتعدِّي[2] وألحقوه بقول الشاعر:

**يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي**

نفذوا إلى أعماق الحرف؟ ألا ترى فارقًا بين أنْ تقول: «يجرح عراقيبها نصلي» ، وبين قول الشاعر «يجرح في عراقيبها نصلي»؟

أليس الشاعر يود نفاذ نصله إلى أعماقها والإجهاز عليها؟ وهو ما لا يؤديه تعدِّي الفعل بنفسه ، إذ قد يكون الجرح سطحيًّا لا غائرًا مؤثرًا.

وقريب منه قوله تعالى مصورًا استقبال «سارة» نبأ تبشيرها بإسحاق ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات:

---

(١) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشريِّ ٤١٩ ـ ٤٢٠.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٢١، وروح المعاني ٢٦/ ١٩.

٢٩) ، حيث كان لهول الخبر ومفاجأته أثر كبير ، أفقدها اتِّزانها ، وأذهلها عن نفسها ، فانطلقت صيحتها المدوِّية ، تعبيرًا عن دهشتها ممَّا سمعت ، دون أنْ تبالي بما في بيتها من ضيوف غرباء عنها ، والمبالغة في شدة الصيحة وعظمها لا يبرزها إلا أنْ تُجعل ظرفًا يُغطِّي على سارة ويحتويها ، حتى لكأنَّ السامع انشغل بالصيحة عن الصائح ، وهو ما يعبِّر بدقة عن شدة وقع الخبر على قلبها.

ولنقرأ بعد ذلك ما قاله الألوسي لنرى إلى أي حد كشف عن بلاغة النظم الكريم: «والجار والمجرور في موضع الحال ، أو المفعول به إنْ فُسِّر (أقبلت) بـــ(أخذت). قيل: إنَّ (في) زائدة ، كما في قوله: يجرح في عراقيبها نصلي ، والتقدير: أخذت صيحة» [١].

ومن بليغ مواقع «في» ما سمَّاه النُّحاة بالمقايسة ، على أنَّها أحد المعاني التي تفارق فيها الظرفية ، وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق [٢] ، ومثَّلوا لها بقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ (التوبة: ٣٨) ، والمعنى على هذا: ما متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة إلا قليل.

وأرى – والله أعلم – أنَّ حرف الوعاء على أصله ، والظرفية فيه هامسة بعِظَم الآخرة ونعيمها ، وتفاهة الدنيا ومتاعها ، وهو إذا ما قورن بنعيم الآخرة ظهرت ضآلته وتلاشى فيه ، وصار قطرة في بحر ، أو ضوء ذبالة خافتًا ، جئت به في أوج النهار ، ووضعته في ضوء الشمس، فاحتوته وتلاشى فيها. وذلك أوقع في الكشف عن ضآلة الدنيا،

(١) روح المعاني ٢٧/ ١٣.
(٢) انظر الإتقان ١/ ١٦٧.

والتقليل من متاعها ونعيمها من جعل «في» للمقايسة.

***

## «في» وحرف الاستعلاء

إنَّ أكثر الحروف قُربًا من «في» ، وتداخلاً معها ، هو حرف الاستعلاء ، ممَّا جعل الكوفيين وكثيرًا من المفسرين يذهبون إلى جعل «في» بمعنى «على» في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وإنْ اتجَّه آخرون إلى جعل «في» بمعنى «على» في كثير من آيات الذكر الحكيم، وإنْ اتجَّه آخرون إلى جعل ذلك من باب استعارة حرف الظرفية لحرف الاستعلاء.

ومن المواطن الشهيرة التي خاض فيها النُّحاة والمفسرون وأربابُ البيان ، قوله تعالى على لسان فرعون ، مهدِّدًا السَّحَرة إبَّان إعلانهم الإيمان بموسى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾(طه: ٧١).

قال أبو القاسم الزجاجي: «(في) معناها الوعاء والظرفية. وقد تأتي مكان (على). قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ، أي: على»[1].

وقال الفراء: «يصلح (على) في موضع (في)؛ لأنَّه يرفع في الخشبة في طولها ، فصلحت (في) ، وصلحت (على)؛ لأنه يرفع فيها فيصير عليها» [2].

ومقتضى كلام الفراء أنَّ لكُلٍّ من الظرفية والاستعلاء وجهًا ، فالجِذْع يصلح مكانًا للصَّلْب كما يصلح مكانًا للاستعلاء عليه ، ولكن

---

(١) حروف المعاني ١٢.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٨٦.

لماذا أوثر حرف الظرفية على حرف الاستعلاء؟ هذا ما لا جواب له عنده.

أمَّا الزمخشريُّ فإنَّه جعل ذلك من التجوُّز بحرزف الظرفية عن حرف الاستعلاء: «شُبِّه تمكُّن المصلوب في الجِذْع بتمكُّن الشيء الموعى في وعائه ، فكذلك قيل في جذوع النخل» [1].

الدلالة على التمكُّن ، ذلك هو الغرض من التجوُّز في رأي الزمخشريِّ والبيانيين الذين اقتفوا أثره ، وأفرغوا كل جهدهم في استنطاق عبارة الزمخشريِّ ، لمعرفة ما إذا كان يريدها استعارةً في الحرف أو في مدخوله ، تبعيةً أو مكنيةً.

ولا ننكر أنَّ التمكُّن إحدى الدلالات التي يشيعها حرف الوعاء فيما يوصل به ، لكن أنْ يُجعل التمكُّن سببًا من أسباب استعارة حرف الظرفية هنا ، ثم يُجعل نفس الغرض من التمكُّن سببًا في استعارة حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٥) – هو من قبيل الخلط بين دلالات الحروف وأسرار التجوُّز بها ، وهذا ما قاله الزمخشريُّ هناك: «ومعنى الاستعلاء في قوله ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ مَثَلٌ لتمكُّنهم من الهدى واستقرارهم عليه» [2].

فإذا كانت «على» تدل على التمكُّن وتُستعار له ، فلِمَ استُعير حرف الظرفية للدلالة على ذات الغرض في الآية؟

والذي يبدو لي – والله أعلم – أنَّ للظرفية في النظم الكريم ظلالاً

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٤٦.
(٢) السابق ١/ ١٤٢.

وإيحاءات يعجز حرف الاستعلاء عن الوفاء بها ، ففرعون يعبِّر بقوله هذا عن غيظ بلغ مداه ، وثورة غاضبة عاصفة ، وهو يرى عرشه يهتز تحت قدميه بعد هزيمة مَنْ ظنهم سيقهرون خصمه ، ويثبِّتون دعائم مُلكه، وتحوُّلهم من جُند يدافعون عنه إلى عدوٍّ يحاربه ويناصر خصمه ، فأطلق هذه الكلمات منذرًا بأقصى العقوبة ، تنكيلاً بالسَّحرة وتمثيلاً بهم ، معلنًا أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وهو القتل صبرًا ، ثم يُمثِّل بهم إعلامًا لغيرهم ، وتهديدًا لمن تُسوِّل له نفسه أنْ يحذو حذوهم.

وتعبيرًا عن شدة الأخذ ، وعدم الرحمة بالمصلوبين ، جاء حرف الوعاء دالاً على أنَّهم سيُشدُّون إلى الجِذْع شدًّا بالغ القوة والقسوة ، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجِذْع ويشتمله ، وذلك يتناغم مع صيغة التضعيف في الفعل «أُصلِّب» ، ويجسد لك حالة الغيظ التي تموج بها نفس فرعون ، كما يشف لك تفلُّت أعصابه ، وما أثاره الموقف في نفسه من هلع ، وكأنَّه يخشى تفلُّت هذا الجسد الميت ، وروغانه من الجِذْع المصلوب فيه.

ومن دقيق ما جاء حرف الظرفية فيه مستجيبًا لدواعي النظم وأغراضه ، قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) ، حيث المخاطب مغرور منتفخ الأوداج، يضرب الأرض بقدميه اختيالاً وكِبْرًا ، لذا لم يكتف القرآن بنهيه عن المشي اختيالاً وتكبُّرًا ، ومعلوم أنَّ المشي المعتاد لا يكون على غير الأرض ، فعُدِّي المشي إليها بـــ«في» ، إشعارًا بشدة ضربه في الأرض ، ومبالغته في وطئها ، شأن من يظن أنَّه قادر على خرقها ، وذلك يجسد لك إلى أي حدٍّ بلغ اغتراره بقوته وتمكُّنه من دنياه.

ثم قارنْ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٣) ، وكيف دلَّ حرف الاستعلاء على تواضع المؤمنين ، وإقلاعهم عن الدنيا وزهدهم فيها ، وكيف يمشون برفق على هذه الأرض حتى لا تكاد تلمسها أقدامُهم ، وكأنَّهم يمشون بين قوم نيام ، يخشون إيقاظَهم ، واقرأ بعد ذلك روائع القول ودقيقَه ، فرقًا بين «في» و«على» من هذين الموضعين في ما قاله الزركشي: «وقال ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، وقال: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ، وما قال: (على الأرض) ، وذلك لمَّا وَصَفَ العباد بيَّن أنَّهم لم يوطِّنوا أنفسهم في الدنيا ، وإنَّما هم عليها مُستَوقِرون ، ولمَّا أرشده ونهاه عن فعل التبختر قال: ولا تمش فيها مرحًا ، بل امش عليها هونًا» [1].

فإذا جئنا إلى تعدية المشي بـ«في» من قوله تعالى: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾(الملك: ١٥) ، رأينا كيف يُعين حرف الظرفية على عمق الحركة وقوتها ، كما هي مطلوبة من المسلم سعيًا في الأرض ، وعمارةً للدنيا ، وهو ما يستلزم الضرب في أعماق الأرض بحثًا عمَّا أجراه الله تعالى للإنسان على سطحها ، وما استودعه باطنها ، و«على» في موقعها تُشْعِر بالضعف ، والعيش على هامش الحياة ، وليس بمثله تُبنى الحضارات ، ويتحقق استخلاف الله للإنسان في أرضه.

وإلى قريب منه يومئ حرف الوعاء في قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ

---

(١) البرهان ٤/ ١٧٦.

كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴿١٢٨﴾ ﴾(طه: ١٢٨) ، وهو ما رأى ابن الجوزي أنَّه بمعنى «على» [1] ، وليس كما قال؛ لأنَّ «على» في هذا الموضع تُشعر بالمرور السريع على هذه الديار ، ممَّا لا يُعين على التأمُّل ، وعمق النظر ، كما يفيده حرف الظرفية الدال على أنَّهم متمكنون منها ، يتقلبون فيها ، وهو أدعى للعظة والتذكُّر.

وحرف الظرفية في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: ١٢٢) ، يدلُّ على عمق تأثير المؤمنين فيمن حولهم وغزو قلوبهم ، وتجاوزهم بهدى الله تعالى أسماع الناس وظواهرهم ، إلى بواطنهم وأعماق أفئدتهم ، وهو ما يلمح إليه قول أبي حيان: «وقال (في الناس) إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس ، فذكر أنَّ منفعة المؤمن ليست مقتصرة على نفسه» [2].

وقد كثر في القرآن تعدية الصبر بـ«على» ، إشارةً إلى التغلُّب على الشدائد ، والتعالي على المحن ومصائب الدنيا ، كما في قوله تعالى ﴿ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ ﴾ (الأنعام: ٣٤) ، وقوله: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ ﴾ (إبراهيم: ١٢) ، وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾(المزمل: ١٠) ، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾(الحج:٣٥) ، وجاء الصبر متعديًا بـ«في» مرة واحدة في القرآن الكريم ، هي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ

---

(١) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩١.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٢١٤.

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ ﴾(البقرة: ١٧٧).

وأنت ترى كيف غويرت طريقة النظم ، فانتصب «الصابرين» على المدح ، وهو مقام يقتضي الكمال في هذه الصفة ، ويدل على أنَّهم بلغوا الغاية منها.

والمبالغة في الصبر تقتضي أنْ يكون الصابر محاطًا بالمصائب ، محاصرًا بالمحن والشدائد من كل جانب ، سواء منها ما كان في نفسه أو في ماله أو في أهله ، وهو ما يجسِّده حرف الظرفية ، دالاً على أنَّهم اتصفوا بالصبر حين كانت تحيط بهم البأساء والضراء وتشملهم اشتمال الوعاء للموعى فيه.

وهذا مسلك تغيَّاه مَنْ تمكَّن من لغة هذه الأمة ، وفَقِهَ أسرارها ، كما قال ربيعة بن مقروم:

**شَهِدْتُ طِرَادَهَا فَصَبَرْتُ فِيهَا إِذَا مَا هَلَّلَ النَّكْسُ اليَرَاعُ**

فالصبر في الحرب شيء والصبر عليها شيء آخر كما لا يخفى ، وذلك ما كشف عنه في دقة ووضوح صاحب روح المعاني: «وعُدِّي الصبر إلى الأوَّلين بـــ(في)؛ لأنَّه لا يعد الإنسان من الممدوحين إذا صبر على شيء من ذلك ، إلا إذا صار الفقر والمرض كالظرف له ، وأمَّا إذا أصاباه وقتًا ما وصبر فليس فيه مدح كثير ، إذ أكثر الناس كذلك» [1].

***

(١) روح المعاني ٢/ ٤٧.

## «في» وحرف الاختصاص

وقف كثيرٌ من أئمة اللغة وأرباب البيان أمام روعة النظم ودقة استخدام الحروف في مواضعها ، وتتابعت على ألسنتهم وأقلامهم أسرارها ونكاتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦٠).

قال ابن الأثير: «إنما عدل عن اللام إلى (في) في الثلاثة الأخيرة، للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدُّق عليهم ممَّن سبق ذكره باللام؛ لأنَّ (في) للوعاء ، فنبَّه على أنهم أحقَّاء بأنْ توضع فيهم الصدقات ، كما يوضع الشيء في الوعاء ، وأنْ يجعلوا مظنة لها ، وذلك لما في فك الرقاب والغرم من التخلُّص» (١).

ونقل السيوطي عن الفارسي وجهًا آخر في العدول من اللام إلى حرف الوعاء: «وقال الفارسي: إنما قال (وفي الرقاب) ، ولم يقل: (وللرقاب) ، ليدلَّ على أنَّ العبد لا يملك» (٢).

وذلك كله جيد رائع ، أضيف إليه أنَّ حرف الظرفية فيما دخل عليه من مواضعه ، يحمِّل المتصدق أو القائم على الصدقات مسئوليةً خاصةً في تعهُّد صدقته والقيام عليها ، حتى يتأكد من فكِّ الرقبة ، وتخليص الغارم من غرْمه ، لا مجرد دفعهما لهذا الغرض ، كما هو الشأن في الفقراء والمساكين والعاملين عليها ، لأنَّ العبد والغارم في موقف الضعف ، وهما مظنة استغلالهما ، فوجب على المتصدق أو

---

(١) المثل السائر ٢/ ٢٤١.
(٢) الإتقان ١/ ١٤٥.

القائم على الصدقات أنْ يتأكد من وضعها في محلها الذي لا يتهدده الضياع ، وكذلك الشأن حين توضع في سبيل الله ، حيث يجب تحري المواطن التي هي أكثر نفعًا لخدمة قضايا الإسلام.

تلك إيحاءات حرف الظرفية ، وما تُحتِّمه من وضع الصدقة موضعًا أمكن وأنفع.

وفي عدول القرآن من اللام إلى حرف الوعاء ، في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾(النحل: ٤١) دليلٌ على أنَّ الغرض ليس هو بيان خلوص الهجرة لله تعالى ، وإنَّما هو الإيماء إلى أنَّ المهاجرين لاذوا إلى حمى الله تعالى فأظلَّهم بعنايته ، وأحاطهم برعايته ، فهم في ظله هاجروا ، وهم في كنفٍ من حمايته وجدوا الأمن الذي لم يجدوه في أوطانهم ، فمكَّنهم الله في مَهْجرهم ، وآواهم في غربتهم. ألا ترى إلى قوله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾؟ ولعل الوجه الأول ممَّا قاله الألوسي تفسيرًا لـ«في» هو الأقرب إلى بلاغة النظم الكريم ، قال: «﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾أي: في حقِّه. فـ(في) على ظاهرها. ففيه إشارة إلى أنَّها هجرة متمكِّنة تمكُّن الظرف في مظروفه ، فهي ظرفية مجازية. أو لأجل رضاه – فـ(في) للتعليل» [1].

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴿٦٩﴾ (العنكبوت: ٦٩) ، وهو ما عدَّه البعض من أداء «في» لمعنى اللام [2] ،

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٤٤.
(٢) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩٢.

على أنَّ معناه: والذين جاهدوا لنا. وأحسب – والله أعلم – أنَّ القرآن يقصد بحرف الوعاء الإشارة إلى أنَّ هؤلاء المجاهدين بإخلاصهم أنفسهم لله تعالى ، ووضعهم أرواحهم في يده ، هم في حصن من حماية الله تعالى ، يغشاهم برحمته ويحيطهم بأمنه وحوله ، وينشر عليهم سياجًا من معيَّته ، كما يشير إليه تذييل الآية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾وهذا النوع من التجوُّز هو ما كشف عنه الإمام الرَّضيُّ في قوله: «وقولهم: أنت أخي في الله ، أي: في رضاء الله ، أي رضاه مشتمل على مؤاخاتنا ، لا تخرج منه إلى الأعراض الدنيوية ، وكذا قولهم: الحب في الله والبغض في الله» (١).

وهذه الظرفية التي قيل إنَّها للسببية في قوله تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٨) ، هي من التجوُّز في الظرف لتصوير شدَّة غضب الله تعالى ، حين آثر المسلمون عَرَض الدنيا على الآخرة ، واختاروا الفداء على القتل ، ولولا سبق الكتاب بأنْ لا يُعذِّب المسلمين ورسول الله فيهم لحلَّ بهم العذاب وهم غارقون في أخذ الفداء ، منهمكون فيه ، ولعجَّل لهم العذاب قبل أنْ يستمتعوا بآثار ما أخذوه.

وهو نفس الغرض في قوله تعالى عن حديث الإفك مصوِّرًا غضبه على مَنْ خاض في عِرْض أمِّ المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وسبق رحمته عذابه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(النور: ١٤) ، فقد كان غضب الله عظيمًا على

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٠٤.

المفترين ، ولولا سبق رحمته وفضله لأنزل عليهم عذابه وهم يخوضون فيه ، ولأخذهم وألسنتهم لاتزال تلعق إفكهم.

ولعل هذه النكتة ذاتها يمكن أنْ نلمحها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾(البقرة: ١٧٨) ، حيث تدعو الظرفية إلى تعجيل القصاص وعدم التباطؤ فيه ، حتى لا يكون التأخُّر سببًا في دفع أهل القتيل إلى الثأر والانتقام ، ويضيع الغرض من حكمة مشروعية القصاص ، وكأنَّه يهيب بهم أنْ يدفنوا القاتل في جسد القتيل قبل أنْ يواروه التراب ، مع الإشارة إلى أنَّ القتل الأول أبشع وأفظع ، لأنَّه قُتل ظلمًا ، والثاني قُتل عدلاً ، لذلك كان الأول ظرفًا يحتوي الثاني ويشتمله.

وفي ذلك تسفيهٌ لهؤلاء الذين يرتدون مسوح الرحمة ، ويتهمون الإسلام بالقسوة في تنفيذ عقوبة القتل قصاصًا ، وهي رحمة عوراء ترى القاتل فتشفق عليه ، وتتعامى عن القتيل وتتجاهله ، وحسب الناس مغالطةً أنْ يُسمُّوا القصاص إعدامًا بعد أنْ سمَّاه الله حياة.

وهذا يغنينا – في الكشف عن بلاغة القرآن – عن الحذف والتقدير الذي قد يفيد في بيان المعنى ، ولا يكشف عن أسرار الذكر الحكيم. يقول الفخر الرازي: «وأما قوله ﴿ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾، أي: بسبب قتل القتلى؛ لأنَّ كلمة (في) قد تُستعمل للسببية» [1].

وقال أبوحيان: «و﴿ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾يُظهر أنَّها للسبب ، كهي في:

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ٥٢.

(دخلت امرأة النار في هِرَّة) ، أي: بسبب القتلى ، وبسبب هِرَّة» [1].

وهذا الحديث الذي جُعل عنوانًا لدلالة «في» على السببية ، إنَّما هو تجوُّز بالظرفية ، تصويرًا لبشاعة التعذيب ، وتهويلاً من إثم مرتكبه، حتى ولو كان ذلك في الحيوانات الصغيرة التي لا شأن لها في نظر الناس ، فما بالك به إذا وقع على الإنسان ، كما يحدث في عصور الاستبداد والقمع. وحسبك أنَّ الهرة الصغيرة تتسع وتكبر بكِبَر الإثم الذي اقترفته هذه المرأة ، حتى تستوعب قاتلها ، وتحمله في جوفها إلى حيث تلقيه في نار جهنم. والقول بأن معناه: دخلت امرأة النار بسبب هرة كشفٌ للمعنى ، لا بيانٌ لجمال الصورة وما أشاعه حرف الظرفية فيها.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ (النحل: ٢٧) ، فقد جعل بعض المفسرين «في» دالة على السببية ، ولا ضرورة إليه؛ إذ إنَّ المشاقة هنا كما فسَّرها أبوعبيدة [2] هي المحاربة ، وعليه فإنَّ حرف الظرفية يوحي بأنَّ المشركين في مدافعتهم عن آلهتهم كانوا يعتقدون حمايتها لهم ، فهي تمدهم بعونها ، وتحوطهم برعايتها ، وتصنع حولهم سياجًا من قوتها.

فأين هم الآن؟ وأين الحماية والمنعة التي كانوا يتلمَّسونها فيهم؟

---

(١) النهر المادّ من البحر ٢/ ٨.
(٢) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٥٩.

## «في» وحرف الانتهاء

تقع «في» أحياناً مواقع من النظم يظهر لأول وهلة أنها مواقع «إلى» ، فإذا تدبَّرتها ، وأعملت الفكر في أهداف النظم ومراميه ، استبان لك أنَّ حرف الوعاء وحده هو القادر على الوفاء بها.

من ذلك قوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٣). لا شكَّ أنَّك واجدٌ لحرف الظرفية ظلالاً ، لا تجدها لحرف الانتهاء ، من الدلالة على أنَّ القبور هي مقر الإنسان الذي ستطول فيه إقامته ، والذي يجب أنَّ يعمِّره ويعمل من أجله ، فما هو في الدنيا إلا عابر سبيل ، وما يقضيه على ظهرها بالقياس إلى ما يقضيه في باطنها جد قصير. تلك الظلال التي نشرتْها «في» هي التي أوثرت من أجلها في موضعها ، وهذا ما كشف عنه الألوسي: «وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للدلالة على الاستقرار المديد فيها» [1].

وقد كثر تعدية فعل العودة في القرآن الكريم بحرف الوعاء ، ولم يأت مُعدَّى بحرف الانتهاء ، وفي كل مرة يتعدَّى فيها بـــ«في» يلمح إلى مثل هذا الغرض الذي أشار إليه في روح المعاني.

ففي سورة الأعراف: ورد ثلاث مرات في آيتين من خلال حوار دار بين شعيب وقومه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(الأعراف: ٨٨-٨٩).

---

(١) روح المعاني ١٦/ ٢٠٨.

قوم شعيب لا يكتفون بعودة شعيب والمؤمنين به إلى ملّتهم؛ لأنَّ هذا لا يعني ثبوتهم عليها وتمكّنهم فيها ، وذلك ما يُفهم لو عُدِّي الفعل بـــ«إلى» ، أمَّا تعديته بحرف الظرفية فقد كشف عن رغبتهم في استقراره ومن معه في دينهم ، وتمكّنهم فيه تمكُّنًا يضمنون معه عدم الخروج منه ، لذا قالوا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ . وكان الظاهر في جواب شعيب ورفضه العودة إلى دينهم أنْ يقول: «إنْ عدنا إلى ملتكم» ، مبالغةً في نفي مجرد العودة ، ولكنه جاء بـــ«في» مجاراةً لهم في أسلوبهم ، ومشاكلةً له ، على حدِّ قول المرسلين ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم: ١١) ، مؤكدين كلامهم مشاكلة لقول الكافرين: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(إبراهيم: ١٠) ، مع أنَّ المخاطبين غير منكرين ذلك.

ومثل ذلك ما جاء في قصة أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾(الكهف: ٢٠) ، مصوِّرًا خوف المؤمن من بطش الكافرين ، وما ينتظر الفتية من أحد مصيرين: إمَّا الرجم ، وإمَّا العودة في دين قومهم عودةً ثابتةً متمكِّنةً لا خروج منها ، فكان لحرف الوعاء أثره في الكشف عن فزع المؤمنين من الاستقرار في دين باطل ينتهي بهم إلى عذاب الله.

أما قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، فذلك ما لا سبيل إلى حرف الانتهاء فيه ، لأنَّهم لم يخرجوا من النار ولم يفارقوها حتى يُعادوا إليها ، وإنَّما هم فيها ، يحاولون الخروج ويسعون له ، ويُتركون استدراجًا لهم ، حتى إذا شارفوه أعيدوا في نفس المكان من وسط جهنم أو مقرها ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على شدَّة العذاب

وتمكُّنه منهم ، وإحاطته بهم. يقول الألوسي: «﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، أي: في قعرها ، بأنْ رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها ، من غير أنْ يخرجوا منها ، إذ لا خروج لهم ، كما هو المشهور من حالهم ، واستدل له بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وفي اختيار (فيها) دون (إليها) إشعار بذلك» [1].

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾(النساء: ٩٧).

وهو ما قيل فيه إنَّ «في» بمعنى «إلى» [2] ، وهذا صحيح لو أنَّهم كانوا خارج أرض الله ، فيطالَبون حينئذ بالهجرة إليها ، أمَا وأنَّهم في هذه الأرض ، فإنَّ النعي عليهم ولومهم لأنَّهم لم يضربوا في أعماق الأرض بحثًا عن مكان آخر يأمنون فيه على دينهم ، ويمارسون فيه شعائر عقيدتهم. و«في» توحي بالإبعاد في الأرض فرارًا من الإيذاء ، وهروبًا من فتنة الكافرين ، ولو جيء بدلاً منه بحرف الانتهاء ، لأشعر بمجرد الوصول إلى أرض أخرى والانتهاء إلى طرف منها ، ممَّا يجعلهم عرضة للوقوع في يد عدوهم المتعقِّب لهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ

---

(١) روح المعاني ١٧/ ١٣٥.
(٢) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩١، ومعاني الحروف للزجاجي ٨٤.

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ (الإسراء: ٩٠ -٩٣).

تعدية «ترقى» إلى السماء بـــ«في» غير معهودة ، ممَّا حدا ببعض المفسرين إلى القول بنيابتها عن «إلى» ، أو إلى تقدير مضاف قبل السماء. قال الفراء: «وقوله ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، المعنى: إلى السماء، غير أنَّ جوازه أنَّهم قالوا: أو نضع سلمًا فترقى عليه إلى السماء ، فذهبت (في) إلى السلم» (١).

والمتأمِّل في النص القرآني يرى موقفًا من التحدِّي وقفه المشركون، لا يكشف عنه ويبرز أهدافه غير الحرف الذي آثره القرآن. ذلك أنَّه لو قال: «أو ترقى إلى السماء» ، لما عبَّر عن مرادهم باختراق السماء والتغلغل فيها حتى يصل إلى عرش ربه ، ويأتيهم بكتاب من عنده ، وهم يشاهدون رقيه ويرقبون عودته والكتاب في يده ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ ، وليس مجرد الانتهاء إلى السماء ، وفي ذلك مبالغة في رفضهم الإيمان به ، وتصديقه فيما جاء به.

وقد كشف الرازي عن مثل هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (سبأ: ٢).

فقال: «قال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ، ولم يقل: (وما يعرج إليها) ، إشارةً إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأنَّ

---

(١) معاني القرآن ٢/ ١٣١.

كلمة (إلى) للغاية ، فلو قال: (وما يعرج إليها) لفُهِم الوقوف عند السماوات ، فقال: ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ليُفهَم نفوذها فيها وصعودها منها ، ولهذا قال في الكلم الطيب ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾؛ لأنَّ الله هو المنتهَى ، ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأمَّا السماء فهي دنيا» [1].

وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ (البقرة: ١٤٤).

أظهر حرف الظرفية شدَّة إغراق الرسول – عليه السلام – في الدعاء ، وانصرافه إلى ربه بالكلية ، مقبلاً عليه متقرِّبًا منه ، مُلحًّا عليه في الرجاء ، وكأنَّه فارق عوالم الأرض ، واستوطن بفكره السماء ، منشغلاً عن دنياه ، متفرغًا لسؤال ربه أنْ يحقق له رغبته في التوجُّه إلى بيته. هذا ما يشيعه حرف الظرفية بعيدًا عن تأوُّل حذف مضاف (وتصرف نظرك في جهة السماء) [2] ، أو القول بأنَّها بمعنى «إلى» [3]، أو أنَّها بمعنى «نحو» [4] ، وغير ذلك من التخريجات التي لا تستبطن أسرار الظرفية وما تلمح به في موقعها.

ومن قبيل ذلك في الدلالة على استغراق الفكر والقلب ، والانشغال بالمنظور فيه انشغالاً يحيط به ويشتمله ، قوله تعالى متحدثًا عن إبراهيم – عليه السلام – ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾(الصافات: ٨٨) ، وذلك جارٍ على سبيل التجوُّز والاتساع في حرف الظرفية ، إيماءً إلى شدَّة التأمل

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٤٠.
(٢) روح المعاني ٢/ ٨.
(٣) انظر البحر المحيط ١/ ٤٢٨.
(٤) انظر حروف المعاني للزجاجي ٨٤.

والاستغراق. يقول الرماني كاشفًا عن حقيقة «في» وتصرّفها على سبيل المجاز والاتساع: «ومعناها الوعاء ، تقول من ذلك: المال في الكيس ، واللص في السجن ، أي: اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللص، وقد يتسع فيها فيجري مجرى المثل ، وذلك نحو قولك: فلان ينظر في العلم ، كأنَّ العلم قد اشتمل عليه» (١).

وهذا فرق ما بين تعدّي النظر بـ«إلى» ، وتعدّيه بـ«في»؛ فالأول يُقصد به مجرد المشاهدة ، ومَدُّ الطرف نحو المنظور إليه ، والثاني يدل على تقليب النظر والاستغراق في المنظور ، وإعمال البصر والبصيرة؛ فالأول نظرٌ بالعين ، والثاني نظرٌ بالقلب. يقول ابن جزري الكلبي: «(نظر) له معنيان ، من النظر ومن الانتظار ، فإذا كان من الانتظار تعدَّى بغير حرف ، ومن نظر العين يتعدَّى بـ(إلى) ، ومن نظر القلب يتعدَّى بـ(في)» (٢).

وقال الراغب: «نظرتَ إلى كذا ، إذا مددتَ طرفك إليه ، رأيتَه أو لمْ تره ، ونظرتَ فيه ، إذا رأيتَه وتدبَّرتَه ، قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾. نظرت في كذا: تأملته ، قال: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ ، وقوله تعالي: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فذلك حثٌ على تامل حكمـ[illegible]ـي [illegible]ـاقها» (٣).

وقد تتبَّعت ما جاء من النظر متعديًا بـ«في» فلم أجد سوى الآيتين

---

(١) معاني الحروف ٩٦.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٢٧.
(٣) المفردات ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

اللتين ذكرهما الراغب ، على حين جاء متعديًا بـــ«إلى» في خمسة عشر موضعًا ، وكلها تشهد على أنَّ التعدِّى بـــ«في» يومئ إلى الاستغراق في المنظور ، وشدة التأمُّل فيه ، وانشغال الفكر والقلب به ، حتى لكأنَّ المنظور يحتوي الناظر ويشتمله ، كما في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾(الأعراف: ١٨٥) ، وهو دعوة إلى التفكير والتدبُّر وصولاً من عظمة المخلوق إلى تعظيم الخالق والإيمان به ، وليس مجرد النظر والمشاهدة بالعين ، كيف وهم في ملكوت الله ، وأعينهم تقع كل لحظة عليه؟

على حين نجد المراد بالنظر المشاهدة والرؤية بالعين فيما تعدَّى بـــ«إلى» ، كقوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأحزاب: ١٩) ، فهي نظرة قلقة وَجِلة ، لا يكاد يستقر الطرف فيها على مُحيَّاه – عليه السلام – لا نظرة المتأمِّل الفاحص ، ومثله قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾} (محمد: ٢٠).

وممَّا هو واضحٌ جليٌّ في الدلالة على مجرد المشاهدة ونظر العين، قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾(الأعراف: ١٤٣) ، حيث كانت رغبة موسى جامحة في مشاهدة ربه والنظر إليه بعيني رأسه ، ليرى ببصره ما يعيش فيه ببصيرته وفكره ، لذا تعدَّى النظر بـــ«إلى» ، وجاء أمر الله له بالنظر إلى الجبل ليشاهد ما يحل به حين يتجلى ربه

له، فلم تكد تقع عيناه على الجبل حتى جعله الله دكًّا وخرَّ موسى صعقًا.

وربما يُعترض على ما قلناه بمثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق: ٦) ، وقوله جل شأنه: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (الروم: ٥٠).

إذ من الواضح أنَّه ليس المراد مجرد النظر ورؤية العين ، بل التأمُّل وإعمال الفكر ، ونقول: إنَّ القرآن عمد إلى الإشارة بأنَّ هذه الأشياء التي وُجِّه نظرُ عباده إليها – ظاهرة واضحة ، لا تحتاج إلى طول تأمُّل ، وإعمال للفكر ، وصولاً إلى نتائج مسلم بها ، فالسماء فوقهم ، وما تتصف به من عظم البناء ، وما تتحلى به من نجوم تملأ أعينهم وتغمر أرضهم بضوئها ، والمطر الذي يسوقه الله إلى الأرض الميتة ليحييها بما ينبت فيها من زروع وثمار – أمور ظاهرة جلية ليست بحاجة إلى إنعام النظر فيها ، وشغل القلب لإدراكها ، بخلاف قوله ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾، حيث الدعوة إلىَ البحث في أعماق الكون وما خلق الله فيه ، من أمور ظاهرة تدركها الأعين ، وخفايا لا تدرك بالبصر ، وإنَّما يتوصل إليها بإعمال البصيرة.

ومن بديع النظم الحكيم في إيثار حرف الظرفية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ

ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(المائدة: ٤١).

نقل المرحوم رشيد رضا عن الأستاذ محمد عبده: «المسارعة في الكفر هي المسارعة في نصرته ، والاهتمام بشئونه ، والإيجاب في مقاومة المؤمنين ، وما كُلٌّ يسارع في الكفر ، فإنَّ من الكافرين القاعد الذي لا يتحرك لنصرة كفره ، ولا لمقاومة المخالف له فيه ، والمسارعون المعنيّون هنا هم أولئك النفر من المشركين ، كأبي سفيان ومن كان معه من صناديد قريش.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد بهم المنافقون ، ورووا في ذلك روايات في سبب النزول ، وإنَّما يأتي هذا لو قال: يسارعون إلى الكفر» [1].

وظاهر الآية ناطق بأنَّها تتحدث عن المنافقين ، بدليل قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ ممَّا لا يحتاج إلى روايات في أسباب النزول ، وصناديد المشركين لم يؤمنوا بأفواههم. وهؤلاء المنافقون هم في رحاب الكفر لم يخرجوا عنه ، لذلك جاءت «في» معبِّرة عن أنَّهم يهوون في أعماقه ، وينغمسون في ظلماته ، ويتخبطون في مجاليه ، ولو أنَّه قال: «يسارعون إلى الكفر» لأوهم أنَّهم آمنوا ثم تحوَّلوا إلى الكفر. كيف والآية مواساة لرسوله ، وتسلية له بأنَّهم لم يكونوا مؤمنين قط ، فلا داعي للحزن عليهم والحسرة على تردِّيهم في

(١) تفسير القرآن الحكيم ٤/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

مهاوي الكفر.

انغماسهم في الكفر ، وتمكُّنهم فيه ، وتخبُّطهم في ظلماته – ذلك ما يوحي به حرف الوعاء. والقول بالتضمين الذي ذهب إليه بعض المفسرين يطفئ إشعاعات هذا الحرف. قال الألوسي: «ولتضمُّن المسارعة معنى الوقوع تعدَّت بـــ(في) دون (إلى) الشائع تعديتها بها ، كما في ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٖ﴾وغيره ، وأوثر ذلك قيل للإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها ، كما في قوله سبحانه: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ في حق المؤمنين، وأمَّا إيثار كلمة (إلى) في آيتها ، فلأنَّ المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها» [1].

وقد أجاد الألوسي في الكشف عن سر العدول إلى حرف الظرفية في الآية ، وإيثار «إلى» في موضعها من قوله ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾بما لا مزيد عليه ، لولا أنَّه جمع بين تضمين الفعل ، والتجوُّز في الحرف.

ومثل تلك الإجادة ما قاله في قوله تعالى وقد نهى عن موالاة اليهود والنصارى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾(المائدة: ٥٢). قال الألوسي: «قيل (فيهم) مبالغةً في بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها ، وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للدلالة على أنَّهم مستقرُّون في الموالاة ، وإنَّما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٣٢.

بعض آخر منها» [1].

وأضيف إلى ذلك أنَّ «في» تُشعر بما ينتاب المنافق من ذعر وهلع، نتيجة خلوّ قلبه من الإيمان الذي يضفي على صاحبه السكينة ، ويربط على قلبه ، فهو يفزع إلى أوليائه من اليهود والنصارى ، يحتمي بهم ويندسُّ فيهم ، أملاً في إحاطتهم له بحمايتهم ، والالتحاف بقوتهم ، وهذا ما ينطق به قولهم: ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ ، فهم الغطاء الذي يسترهم ، والدرع الذي يحميهم ، والحصن الذي يؤويهم.

وقد كثرت الآراء وتباينت الأقوال في الكشف عن سر حرف الوعاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٩).

فمنْ قائلٍ إنَّها بمعنى «إلى» ، ومنْ قائلٍ إنَّها على سبيل التجوُّز مع الاختلاف في نوع المجاز ، ومنْ قائلٍ إنَّها على حقيقتها محاولاً تفسير الآية بما يدلُّ على حرف الظرفية ، ووسط هذا كله لا ترى لحرف الظرفية إشعاعًا يدل عليه. قال الزمخشريُّ: «فردوا أيديهم في أفواههم غيظًا وضجرًا ممَّا جاءت به الرسل ، كقوله ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾، أو ضحكًا واستهزاءً ، كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ

---

(١) روح المعاني ٦/ ١٥٧.

أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ ، أي: هذا هو جوابنا لكم ليس عندنا غيره ، إقناطًا لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله {فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به} ، وهذا قول قوي» (١).

ويعلق ابن المنير على ذلك بقوله: «وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبَّه المصنف على اختصاصه بالقوة ، وإنَّما كان كذلك لأنَّ إقناطهم للرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم هو المناسب لحدِّهم في الكفر ، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ، ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب ، وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد» (٢).

وبرغم وجاهة هذا القول الذي رجَّحه الزمخشريُّ ، وأبان ابن المنير عن سرِّ قوته ، فإنَّ العدول إلى حرف الظرفية يظل سرًّا محجبًا؛ لأنَّ الإشارة إلى أفواههم بأيديهم إقناطًا لهم يعبِّر عنه حرف الانتهاء بأفضل ممَّا يعبِّر عنه حرف الوعاء.

وذهب المالقي إلى أنَّها بمعنى «إلى» ، وحقَّقه بما يعود إلى معنى الظرفية ، فقال: «فمن ذلك مجيئها بمعنى (إلى) ، كقولك: (رددت يدي في فيَّ). قال الله تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ، أي: إلى أفواههم؛ لأنَّ (ردَّ) يتعدَّى بـ(إلى) ، كقوله تعالى ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ ﴾ ، لكن إذا تحققت هذا فالمعنى أنَّهم إذا ردُّوا أيديهم إلى أفواههم فقد أدخلوها فيها»(٣).

ولا أظن أنَّ ردَّ اليد إلى الفم يستلزم إدخالها فيه ، وهو ممَّا لا

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٨.
(٢) الانتصاف ٢/ ٣٦٨.
(٣) رصف المباني ٤٥١.

يكشف كذلك عن سرٍّ اختصاص حرف الظرفية.

وذ هب الأستاذ عباس حسن إلى أن (في) «تكون بمعنى (إلى) الغائية ، نحو: دعوت الأحمق للسداد فردَّ يده في أذنيه ، أي: إلى أذنيه ، كي لا يسمع النصح. ومنه قوله تعالى ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ كنايةً عن عدم الرد ، وعن ترك الكلام ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾ » (١).

ونسأل: هل قولك: «ردَّ يده في أذنيه» ، و«ردَّ يده إلى أذنيه» ، سواء؟

أليس في العبارة الأولى مبالغة في عدم الاستماع ، والإصرار على عدم تسرُّب الكلام إلى سمعه حتى ليكاد يُدخِل يده في أذنيه؟

مثل هذا يقال في الفرق بين «ردوا أيديهم في أفواههم» ، و«ردوا أيديهم إلى أفواههم» ، إذ إنَّ «إلى» تدل على مجرد إنهاء أيديهم إلى أفواههم بالإشارة من خارجها ، أمَّا حرف الوعاء فإنَّه يدل على المبالغة في عدم الرد عليهم ، وكأنَّهم من فرط الإصرار على إنهاء الحوار معهم أدخلوا أيديهم في أفواههم ، لتعطل جهاز النطق ، وتمنع اللسان عن الحركة ، حتى ولو كانت أصواتًا مكتومة أو حركة محبوسة داخل الفم ، وهو ما يؤكد إقناط الرسل من إجابتهم والاسترسال في الحوار معهم ، إحساسًا منهم بأنَّهم لا يستطيعون مجاراتهم في الحجاج ولا غلبتهم في الإقناع.

أما قولهم تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾ (الفرقان:

---

(١) النحو الوافي ٢/ ٣٨٨.

٥١) ، فليست «في» بمعنى «إلى» ، كما ذهب إليه الدكتور عباس حسن وغيره ، ذلك أنَّ «بعث» و«أرسل» يتعديان بـ«على ، وفي ، وإلى ، واللام» ، ولكل منهما دلالة مع الحرف المتعدِّي به غير دلالته مع الحرف الآخر ، فإذا أريد بالإرسال والبعث معنى الضرر والإهلاك كان «على» هو الحرف المناسب ، وإذا أريد من الإرسال والبعث خير المرسل إليهم ونفعهم ، جاءت اللام بما تحمل من معنى الاختصاص محققة هذا الغرض ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾(البقرة: ٤٧) ، إجابة لرغبة بني إسرائيل في قولهم ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، ونقيض ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾(الإسراء: ٥) ، وقوله: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾(الذاريات: ٤١) ، حيث تلوِّح «على» بمعنى الإهلاك والإبادة فيهما. وإذا أريد الإبلاغ وإنهاء الرسالة إلى المرسل إليهم ، جاءت «إلى» دالة على معنى الإنهاء والقصد ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ (المزمل: ١٥) ، حيث الرسول شاهد بأنَّه بلغ ما أنزل إليه من ربه ، وأدَّى الأمانة إلى أهلها ، ومثله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (يونس: ٧٥).

أما إذا أريد النعي على عقول مَنْ كفروا بالمرسلين والتسجيل عليهم ، والمناداة على جحدهم للحق مع ظهور أدلته ، ويقينهم بصدق

مَنْ أرسل إليهم؛ لأنه يعيش بينهم ويتقلَّب بين أظهرهم ، تجيء «في» مشعرة بذلك ، وبأنَّ المبعوث واحد منْ أوساطهم وذوي المكانة فيهم وليس مجهولاً لهم نائيًا عنهم ، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢) ، وقوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (البقرة: ١٥١).

وقد أشار الزمخشريُّ إلى الفرق بين تعدية فعل الإرسال أو البعث بـ«إلى» وتعديتهما بـ«في» ، وإن لم يبيِّن سرَّ اختصاص كل منهما بموضعه: «فإنْ قلتَ: حق (أرسل) أنْ يُعدَّى بـ(إلى) كأخواته التي هي (وجَّه ، وأنْفَذ ، وبعث) ، فما باله عُدِّي في القرآن بـ(إلى) تارة ، وبـ(في) أخرى ، كقوله ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ ﴾ ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا ، أي في عاد. وفي موضع آخر ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾؟ قلتُ: لم يُعدَّ بـ(في) كما عُدِّي بـ(إلى) ، ولم يجعل صلة مثله ، ولكن الأمة أو القرية جُعلت موضعًا للإرسال ، كما قال رؤبة:

أَرْسَلْتُ فِيهَا مُصْعَبًا ذَا إِقْحَامْ

وقد جاءت (بعث) على ذلك في قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ

قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾» [1].

وجاء في تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات إيضاحًا لقول الزمخشريّ: «إنّما جعل القرية موضع الإرسال ليدل على أنّه لم يأتهم من مكان غير مكانهم ، وإنّما أوحي إليه من بين أظهرهم» [2].

***

## «في» وحرف الابتداء

من بليغ ما جاء في نظم القرآن الكريم إيثارًا لحرف الظرفية فيما ظاهرُه أنّه موقع حرف الابتداء ، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء: ٥) ، على حين خولف هذا النظم في قوله من نفس السورة: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ (النساء: ٨).

فلما كانت الآية الأخيرة تدعو إلى سدّ حاجات ذوي القربى واليتامى والمساكين ببعض الأموال من الميراث ، جاءت «مِن» دالةً على إعطائهم منها ما يستوجبه البِرُّ بالأرحام.

أما الآية الأولى فهي دعوة إلى المحافظة على أموال اليتامى ، وحسن التصرف فيها ، والحرص على تنميتها ، وهو ما يتطلب العمل فيها بالتجارة والإنفاق عليهم من أرباحها حتى لا تأكلها النفقة ، وهو ما أبان عنه بجلاء جارالله الزمخشريُّ: «﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ : واجعلوها

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١.
(٢) تنزيل الآيات على الشواهد الملحق بالكشاف ٤/ ٥٣٣.

مكانًا لرزقهم ، بأن تتَّجروا فيها وتتربحوا ، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صُلب المال ، فلا يأكلها الإنفاق» [1].

وقال أبوحيان: «وقال: فيها ، ولم يقل: منها ، تنبيهًا على ما قاله – عليه السلام – : (ابتغوا في أموال اليتامى التجارة ، لا تأكلها الزكاة)، والمستحب أنْ يكون الإنفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة ، وقيل (في) بمعنى (مِن) ، أي: منها» [2].

ولا شكَّ أنَّ الرأي الأول هو الأليق ببلاغة النظم ، والأهدى إلى كشف أسراره.

وممَّا شكل عليَّ أمره ، وتوقفت أمامه طويلاً ، آيتان من مشتبه النظم الكريم ، وقعتا تذييلاً لقصة واحدة ، هي قصة إهلاك قوم لوط ، وفي سياق يشبه أن يكون واحدًا ، وجاءت إحداهما بـ«مِن» ، والأخرى بـ«في» ، ممَّا دفع المفسِّرين إلى القول بأنَّ «في» بمعنى «من» ، وهما قوله تعالى بعد الإخبار عن هلاك قوم لوط: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقوله في نهاية نفس القصة من سورة الذاريات: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (الذاريات: ٣٧).

فذهب الفراء إلى أنَّ المعنى في الآيتين: «وتركناها آية» ، على زيادة «من» و«في» ، على حدِّ قولك: «السماء فيها آية» ، وأنت تريد: «السماء آية» [3] ، فإذا كان الحرفان زائدين فلِمَ اختصت إحداهما بـ«من» والأخرى بـ«في»؟

---

(١) الكشاف ١/ ٥٠٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ١٧٠.
(٣) انظر معاني القرآن ٣/ ٨٧.

وبعد طول تأمّل في أعطاف النظم ، وتسمُّعٍ لهمس السياق في الموضعين ، وقع لي أنَّ القصة في العنكبوت سيقت لبيان فضل الله في إنجاء أوليائه ، حين يصدقون الله فيما يبتليهم به ، وهو ما افتتحت به السورة ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ، ثم حكى الله قصة نوح مع قومه ، وذيّلها بقوله ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(العنكبوت: ١٥) ، ثم أردفها بقصة إبراهيم ، وأنهاها بقوله: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢٤) ، ثم أعقبها بقصة قوم لوط ، وكان ختامها قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(العنكبوت: ٣٣-٣٥).

فناسب «من» هذا السياق لأمرين؛ أولهما: أنَّ سياق القصة يدعو إلى أخذ العظة والعبرة من إنجاء الله أولياءه ، وإهلاكه أعداءه ، وذلك يستدعي «من» ويتطلبه. وثانيهما أنَّ الآية هنا مستنبطة بالتعقُّل والتأمُّل ، وليس بالنظر والمشاهدة ، وهو ما يصل إليه العقل بالاستنتاج والربط بين الأحداث والنتائج ، ومنها يأخذ العظة والعبرة ، وذلك ما دلَّ عليه قوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

أمَّا في سورة الذاريات فالقصة مسوقة للإرهاب والتخويف بمصائر الأمم السابقة ، ممَّا أبادها الله تعالى لكفرها وفسقها ، وذلك لا يتحقق على أكمل وجه إلا بمشاهدة آثارها الناطقة بأليم العقاب وسوء المصير ، وهو سر إيثار «في» دالةً على بقاء آثار هذه القرية ، ليشاهد

الناظر فيها ما حلَّ بها من سوء العذاب.

ويدلُّ على ذلك أمران: أولهما أنَّ التحديث عن إنجاء الله لوطًا ومَنْ معه يتوارى خلف نُذر العذاب ، ووطأة الانتقام ، حتى إن لوطًا لم يُذكر صريحًا في هذا الموضع ، ممَّا يدلُّ على أنَّ القصة مسوقة للتخويف والتهديد ، وثانيهما قوله ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ، وهو صريح في الكشف عن الغرض من ذكر القصة ، وهو التخويف من عذاب الله ، وذلك يتحقق بالوقوف على آثار هذه القرية والنظر فيما بقي شاهدًا على ما أنزله الله بها من عقاب.

هذا بالإضافة إلى مشاكلة نسق الآية لما قبلها وما بعدها ، فقد سبقها قوله ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وتبعها قوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ، ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ ، ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، فكانت مشاكلة «في» لأخواتها لونًا من جمال اللفظ وحسن النسق ، وهو ما لا نجده في نسق آية العنكبوت.

ومما اشتبه نظمه وخولف فيه بين حرف الوعاء وحرف الابتداء ، قوله تعالى من سورة النحل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(النحل: ٨٤) ، وقوله في نفس السورة ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ (النحل: ٨٩).

فذهب البعض إلى أنَّ «في» بمعنى «من» [1] ، وهذا يجعل قوله

---

(١) انظر الإتقان ١/ ١٦٧.

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تكرارًا له. وذهب أبوحيان إلى أنَّ «في» على أصلها ، وأنها محذوفة من الآية الأولى ، كما حذف ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيها أيضًا[1].

وهذا الحذف – فيما أري – لا دليل عليه؛ لأنَّ الآية الأولى تصوِّر موقفًا غير ما تُصوِّره الآية الثانية ، وفي الثانية ما استدعى مزيدًا من الإطناب والتأكيد.

ذلك أنَّ الآية الأولى إخبار منه – تعالى – أنَّه يجمع الشهداء من الأمم في موقف قصد منه إعلام الكافرين بجمع الأدلة ضدهم ، وإحضار من يكذبونهم إذا ما ادَّعوا عدم تبليغ الرسل لهم ، لكنه ليس موقف محاجَّة ومساءلة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ، لذا لم يحتج إلى المبالغة بكون الشهيد فيهم ، كما لم يحتج إلى التأكيد بأنَّه من أنفسهم ، ولا بأنَّه شهيد عليهم ، متى ما انتفي السؤال والمحاجَّة.

أما الآية الثانية فهي تُصوِّر موقف المحاجَّة والخصومة ، وتبادل الاتهامات ، وإلقاء القول ، بعد أنْ أذن الله لهم بذلك ، كما يفصح عنه قوله قبل هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ، فلم يكن إلقاء السلم وذهاب افترائهم إلا دليلاً على أنهم وُجهوا بشهادة مَنْ أرسلوا

---

(١) انظر البحر المحيط ٤/ ٥٢٧.

فيهم وشهدوا عليهم ، ومن ثمَّ صرَّح في هذه الآية بأنَّ الشهيد مبعوث فيهم بما يدل على أنَّه عاش بينهم واستبطن أحوالهم ، وذلك بجعل الشهادة عليهم أمكن وأوثق ، ومن ثمَّ جاء ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تأكيدًا له.

ويرى ابن الزبير الغرناطي أنَّ الآية الأولى تمهيدٌ للآية الثانية التي صُرِّح فيها بذكر شهادة الرسول على أمته ، وأتبعت بما يدل على البشارة للمؤمنين مع الزجر والتعنيف لمن لم يؤمن: «ولما كان قوله تعالى ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ حاصلاً من تعيينه – عليه السلام – وتحقيق كونه الشهيد على أمته ، وكونه من أنفسها ، ورد ما قبله محرزًا فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم ، من أنَّ كل نبي قبله إنَّما كان من أنفس القوم المرسل إليهم ذلك الرسول ، لا من غيرهم ، وهو الشهيد عليهم. وحقق ذلك في الثانية بما يحرزه حرف الوعاء الذي هو «في» ، ويقتضيه في استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة؛ لأنَّ قوله ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يحتمل أنْ يراد به أنْ يكون منهم في مذهب ، أو جامع بينهم وبينه ، من غير أنْ يكون من أنفسهم. أما قوله ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فأنصُّ في الاتصال واللزوق ، لاسيما بما أتبع به من قوله ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ، فطوبق بين المتقابلين من قوله ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النمل: ٢٥).

(١) ملاك التأويل ١/ ٦١٩ – ٦٢٢ بتصرُّف.

يقول الفراء: «يقال: هو الماء الذي ينزل من السماء ، والنبت من الأرض ، وهي في قراءة عبدالله (يخرج الخبء من السماوات) ، وصلُحت (في) مكان (من)؛ لأنك تقول: (لأستخرجن العلم الذي فيكم منكم) ، ثم تحذف أيَّهما شئت ، أعني: (من) و(في) ، فيكون المعنى قائمًا على حاله» [1].

وفي عبارة الفراء إلباس ، حيث إنَّه يستفاد منها أنَّه من باب الحذف ، كما يستفاد منها أنَّه من باب نيابة أحد الحرفين عن الآخر ، وهو ما فهمه عنه كثيرٌ ممَّن قالوا إنَّ «في» نابتٌ في هذا الموضع عن «من».

على أنَّني أجد في القراءة المشهورة بحرف الظرفية دلالة أعمق على قدرة الله تعالى من استخراج المخبوء المغيب في أطواء السماوات والأرض ، ممَّا لا يقف عند حدِّ إنزال المطر ، أو إنبات الأرض ، وهو ما لا يستطيع الإنسان استخراجه إلا بهدى من الله وإلهام منه ، وذلك ما يستوجب السجود لله شكرًا على ما هداه إليه.

وهو ما عبَّر عنه الألوسي في أحد وجهين قال: «أي يظهر الشيء المخبوء فيهما كائنًا ما كان» [2].

***

## «في» وكلمة المصاحبة

ذهب كثيرٌ من المفسرين ، جريًا وراء رأي الكوفيين ، إلى أنَّ «في» تدل على معنى المصاحبة ، كما تدل عليه «مع» في كثير من آيات

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٢٧٦.
(٢) روح المعاني ١٩/ ١٩٢.

الذكر الحكيم. قال الهروي وهو يعدّد معاني الظرفية: «وتكون بمعنى (مع). قال الله جل ثناؤه: ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾، معناه: مع عبادي ، وقال: ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، أي مع عبادك في الجنة» [1].

وسنعرض لبعض هذه الآيات لنرى كيف أشاع حرّف الوعاء فيها روحًا من البيان لا يمكن أنْ تشيعها الكلمة الموضوعة للدلالة على المصاحبة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

الآيات مسوقة لبيان تكريم الله تعالى لهذه النفس التي اطمأنت بإيمانها ، وما قدّمته من خير العمل ، وحسبُها أنْ يستقبلها الله راضيًا عنها راضية عنه ، فإذا جاء أمر الله تعالى بالدخول في عباده المكرمين، كان غاية التكريم أنْ تكون هذه النفس في الصدر من هؤلاء العباد ، يحيطون بها ويحتفون بوفادتها ، وليست في الحاشية من هؤلاء العباد ، كما تدل عليه كلمة المصاحبة ، الموحية باتباعهم لهم وإلحاقهم بهم. ولعل في تقديم دخولهم في هؤلاء العباد على دخولهم الجنة ما يؤكد هذا التكريم ، بما يدل على أنهم لم يُسبقوا بدخول الجنة ، وكأنّ السابقين من عباد الله الصالحين في انتظارهم قبل دخولها.

ومثله قوله تعالى على لسان سليمان – عليه السلام – : ﴿ وَقَالَ رَبِّ

---

(١) الأزهية في علم الحروف ٢٦٧.

أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل: ١٩) ، فإنَّ منزلة سليمان – عليه السلام – ومقام الرجاء يجعلانه في الصدر من عباده الصالحين ، وليس مصاحبًا لهم ملحقًا بهم.

ولنفس الغرض جاء حرف الظرفية في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾(الأعراف: ٣٧ – ٣٨).

هذا موقف القهر وإدلال القدرة ، وتحقير شأن الكافرين ، والسخرية منهم وممَّن أشركوهم مع الله آلهةً ، ولا أدلَّ على ذلك من حرف الظرفية الموحي بأنَّ المخاطبين يتوارون في غمار الأمم التي كفرت بربها ، وألقى الله تعالى بهم في نار جهنم ، وهو غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم.

وهذا سر عدم الاكتفاء بالأمر بدخولهم النار ، حيث لم يقل: ادخلوا في النار ، كما لم يكتف بقوله «ادخلوا في أمم» حتى بيَّنه بقوله «من الجن والإنس».

الدلالة على كثرة الكافرين وحقارة شأن الداخلين فيهم هو سرُّ الظرفية ، وإيثارها على كلمة المصاحبة. وقد جعل الرازي «في» من مجاز الظرفية ، ولكنَّه لم يكشف عن سر التجوُّز. قال: «التقدير: ادخلوا في النار مع أمم ، وعلى هذا القول ففي الآية إضمار ومجاز ، أمَّا

الإضمار فلأنَّا أضمرنا فيها قولنا: في النار ، وأمَّا المجاز فلأنَّا حملنا كلمة (في) على (مع)؛ لأنَّا قلنا معنى قوله ﴿ فِيٓ أُمَمٖ ﴾ ، أي: مع أمم»[1].

ومنه قوله تعالى في خطاب موسى – عليه السلام – : ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ (النمل: ١٢).

«في» من قوله ﴿ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ تربط على قلب موسى – عليه السلام – وهو ذاهبٌ للقاء فرعون ، تحدوه قوة الله تعالى ، ويحيطه تسعٌ من آياته ، تصنع حوله سياجًا من جند الله تعالى ، وتغمره بما يوفر له الحماية والأمان في مواجهة عدو الله ، وفرق بين أنْ يكون معه من الأسلحة ما يدافع به ، وأنْ يكون محاطًا بما يدفع عنه. ألست معي بعد ذلك في أنَّ القول بأنَّها بمعنى «مع» يضيق عن استيعاب أسرار الذكر الحكيم؟

وفي وصف المتخلفين عن القتال من المنافقين يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾(التوبة: ٤٦ – ٤٧).

قال أبوحيان: «(وَفِيكُمْ) أي: في جيشكم ، أو في جملتكم ، وقيل (في) بمعنى (مع)» [2].

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٧٣.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٩.

فالظرفية في نظره لا تصحُّ إلا على تقدير مضاف محذوف ، وإلا كانت «في» بمعنى «مع» ، وليس هناك دليل على الحذف سوى كون المخاطبين لا يصلحون ظرفًا ، فوجب تقدير ما يصحُّ معه دخول حرف الظرفية. ولسنا نقول إنَّ الظرفية هنا حقيقة ، ولكننا نقول إنَّها تجوز واتساع ، وحينئذ يجب علينا أنْ نبحث عن سرِّ التجوُّز بدلاً من اللجوء إلى الحذف والتقدير ، أو القول بنيابة الحرف عن كلمة المصاحبة.

ووجه البلاغة فيما عليه النظم أنَّ المنافقين لا يريدون للمسلمين نصرًا ، ولا تكثيرًا لعددهم ، وإنَّما يبحثون عن هزيمتهم ، ويتمنَّون انتصار شركائهم في العقيدة ، والكفرُ كلُّه ملة واحدة ، ولو أنَّهم خرجوا مع المسلمين لصاروا عيونًا عليهم ، واندسوا بينهم ينقلون أخبارهم إلى إخوانهم من الكفار ، ولأثاروا الفتنة في جيوش المسلمين ، كما ينطق به قوله ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ .

فالظرفية هنا تومئ إلى أنَّ خروجهم في صفوف المسلمين سيكون مرضًا يسري في أوصالهم ، وعيونًا لأعدائهم تندسُّ فيهم ، وتتوارى في جيوشهم. ألا تر ى كيف غُوير النظم في قول المنافقين لإخوانهم تعبيرًا عن حماسهم في مناصرتهم وتكثير عددهم ، والقتال معهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾(الحشر: ١١) ، فالخروج معهم تجسيد لرغبتهم في تكثير عددهم والانضمام إلى جيوشهم ، والخروج في المؤمنين حربٌ عليهم وسلاحٌ يفتُّ في عضدهم ، فدلَّ على الأول بالمصاحبة ، وعلى الثاني بالظرفية.

وقد أدار الزمخشريُّ حوارًا حول حرف الظرفية ، شارك فيه كثيرٌ

من أرباب البيان في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩).

قال الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: كيف يكون المطر مكانًا للبرق والرعد ، وإنَّما مكانهما السحاب ، قلتُ: إذا كنا في أعلاهِ ومصبِّه ، ومتلبسين في الجملة به فهما فيه ، ألا تراك تقول: فلان في البلد ، وما هو منه إلا في حيز يشغله جرمه» (١).

ويتدخل السيد الشريف في حاشيته على الكشاف ليوضح نوع التجوُّز وعلاقته فيقول: «يعني أنَّ ظرفية السحاب للرعد والبرق ظاهرة دون ظرفية المطر لهما ، أجاب بأنَّهما لمَّا كانا في محل يتصل به هو أعلاه ومصبه ، أعني السحاب ، جُعلا كأنَّهما فيه ، بناءً على استعارة كلمة (في) للملابسة الشبيهة بملابسة الظرفية ، كما شبهت بها ملابسة الشخص للبلد ، فاستعمل فيها كلمتها» (٢).

وهذا القول بالتجوُّز في استعارة معنى الظرفية للمجاورة أو المصاحبة يلجأ إليه أهل البيان فرارًا من القول بنيابة حرف الظرفية عن كلمة المصاحبة ، كما رأيناه عند الرازي حين جعلها في قوله ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ مجازًا عن «مع» ، لكن سر التجوُّز يبقى بعد ذلك غائمًا محتجبًا.

ويبدو لي – والله أعلم – أنَّ الله تعالى أراد أنْ يجسِّد في المطر كل مصادر الرعب والفزع ، باعتباره بلاءً أرسله الله على هؤلاء المنافقين ،

---

(١) الكشاف ١/ ٢١٥.
(٢) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٢١٥.

ومن ثمَّ جعله مستودعًا للظلمات ، هكذا بالجمع حتى تتوارى ظلمة الليل في ظلماته الكثيفة ، وجعل البرق والرعد المصاحبين له ينطلقان منه وينبعان من أعماقه ، تهويلاً من شأنه ، وتعبيرًا عن كثرة ما يختزن فيه من صواعق متتابعة. هذه المبالغة في تضخيم الصيِّب ، وتكثير ما ينطلق منه ويتوالى من الظلمات ، والرعود ، والبروق ، هي سرُّ إيثار حرف الظرفية على كلمة المصاحبة.

***

## «في» ودورها في بلاغة التجريد

من ألطف مواقع «في» وأكثرها امتلاءً بالدلالات ما تأتي فيه أداةً للتجريد. والتجريد أحد الفنون التي استقرَّت في مكانها من علم البديع ، وهو كما عرَّفه الخطيب القزويني: «أن يُنتزع من أمر ذي صفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة مبالغةً في كمالها فيه» (١).

وأروع أقسامه ما جاء منه بحرفٍ من حروف التجريد الثلاثة (من، والباء ، وفي) ، وله نكتة عامة؛ هي المبالغة في كمال الصفة الجارية على المجرد منه. ومن أشهر أمثلة التجريد بـ«في» قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾ (فصلت: ٢٨).

يقول الخطيب: «فإنَّ جهنَّم – أعاذنا الله منها – هي دار الخلد ، لكن انتُزع منها مثلُها ، وجُعل مُعدًّا فيها للكفار ، تهويلاً لأمرها» (٢). وهذه نكتة لطيفة منشؤها أنَّ الظرف أعظم من المظروف ، بحكم أنَّه

---

(١) الإيضاح ضمن بغية الإيضاح ٤/ ٤٤.
(٢) السابق ٤/ ٤٥.

يحتويه ويشتمله ، فإذا جُعلت النار ظرفًا لدار الخلد ، فذلك دلالة على عظمها والتهويل من شأنها.

ومن أمثلة التجريد بحرف الوعاء قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (الأحزاب: ٢١) ، فرسول الله هو ذاته الأسوة الحسنة لمن أراد أنْ يتأسَّى بِه ، ولكنه جُعل محلاً لها ، تعظيمًا لشأنه – عليه السلام – وإيماءً إلى أنَّه المنبع الفيَّاض بكل صفات الخير ، وتنبيهًا للمسلمين ألا يطلبوها في سواه ، فإنَّه وحده الذي تكتمل فيه أوصاف الخير ، ومن طلب الأسوة في غيره ضلَّ وغوى. ولو جاء النظم هكذا: «لقد كان لكم رسول الله أسوة حسنة» لما أغلق الباب على طلب الأسوة في غيره ، والمسلم لا يقتدي بغير رسول الله ، أو بمن جعل رسول الله أسوته.

ومن القرآن اغترف ، وعلى نهج أسلوبه درج مَنْ قال:

**أَرَاقَتْ بَنُو مَرْوَانَ ظُلْمًا دِمَاءَنَا وَفِي اللهِ إِنْ لَمْ يَعْدِلُوا حُكْمُ عَدْلِ**

جاعلاً ذات الله نبعًا لكل حكم عادل ، مضمِّنًا كلامه أنَّ كل حكم يتسم بالعدالة فالله وشرعه مصدره ومنهله ، وفي المقابل فإنَّ كل حكم لا يُستمد من الله وشرعه فهو الظلم البيِّن والضلال المبين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (يوسف: ٧).

فقد عمد القرآن إلى الاحتفاء بهذه القصة وتعظيم شأنها ، لما حفلت به من أحداث تكشف عن طبائع البشر ، بما لا يكشف عنها وقوعها في غير بيت النُّبوَّة ، وفي كل فصل من فصولها وحدث من أحداثها عبرة

وعظة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾، فجاء أسلوب التجريد ليجعل من يوسف وإخوته محلاً ونبعًا للآيات ، إشارةً إلى غنى هذه القصة بالأحداث ، وما يُستمد منها من عبر وعظات، حثًا على تدبُّرها ، والغوص في أعماق نفوس أبطالها ، بحثًا عن دوافع الخير فيهم ، أو نزعات الشرِّ في طباع الإنسان.

كثرة الآيات والدعوة إلى استبطان الأحداث ، والغوص في أعماق النفوس ، هو ما يشي به حرف الظرفية ويدلُّ عليه ، ووضوح الآية في عيسى وعدم تشابك الأحداث في قصته هو الذي جعل النظم الحكيم يعدل عن التجريد في قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ (مريم: ٢١) ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴾(المؤمنون: ٥٠).

وأي خفاءٍ يحتاج إلى استبطانٍ وكُلُّ ما جرى له ولأمِّه إعجاز إلهيٌّ، وآيات بيِّنات ، ثم لا كشف عن طبائع بشرية ممَّا جبل الله عليه الإنسان كما هو في سورة يوسف ، بحيث يحتاج إلى إعمال الفكر بحثًا عنها ، إنَّما هو دلالة على بسط يد الله في خلقه ، وقهره لما أجراه فيهم من نواميس.

وللمبالغة مذاقها في جعل الريح محلاً للبرودة الشديدة ، ونبعًا لها ، تهويلاً لشأن الريح ، وتفظيعًا لآثارها المدمِّرة ، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٧) ، لذلك استحسن ابن المنير المبالغة بالتجريد عن المبالغة بالوصف فيما عدَّده الزمخشري من أوجه تفسيرًا لهذه الظرفية. قال

الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: فما معنى قوله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾؟ قلتُ: فيه أوجه ، أحدها أنَّ الصِّرَّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرَّة ، بمعنى: فيها قرَّة صرٍ ، كما تقول برد بارد على المبالغة. والثاني أنْ يكون الصِّرُّ مصدرًا في الأصل بمعنى البرد ، فجيء به على أصله. والثالث أنْ يكون من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، ومن قولك: إنْ ضيَّعني فلان ففي الله كافٍ وكافل ، وفي الرحمن للضعفاء كافٍ» [1].

علَّق ابن المنير على هذا بقوله: «كلها أوجه وجيهة ، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها ، لكن لم يبيِّن الزمخشريُّ وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة ، ونحن نبيِّنها فنقول: إذا قلت مثلاً: إنْ ضيَّعني زيد ففي عمرو بعد الله كافٍ ، فقولك (كافٍ) أتيت به منكرًا مجردًا من القيود المشخصة المخصِّصة ، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً ، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعين ، فهي ظرفية صحيحة ، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه ، إذ المطلق بعض المقيد ، فتنبَّه لهذه النكتة فإنَّها لطيفة» [2].

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠.
(٢) الانتصاف (حاشية على الكشاف) ١/ ٤٥٩.